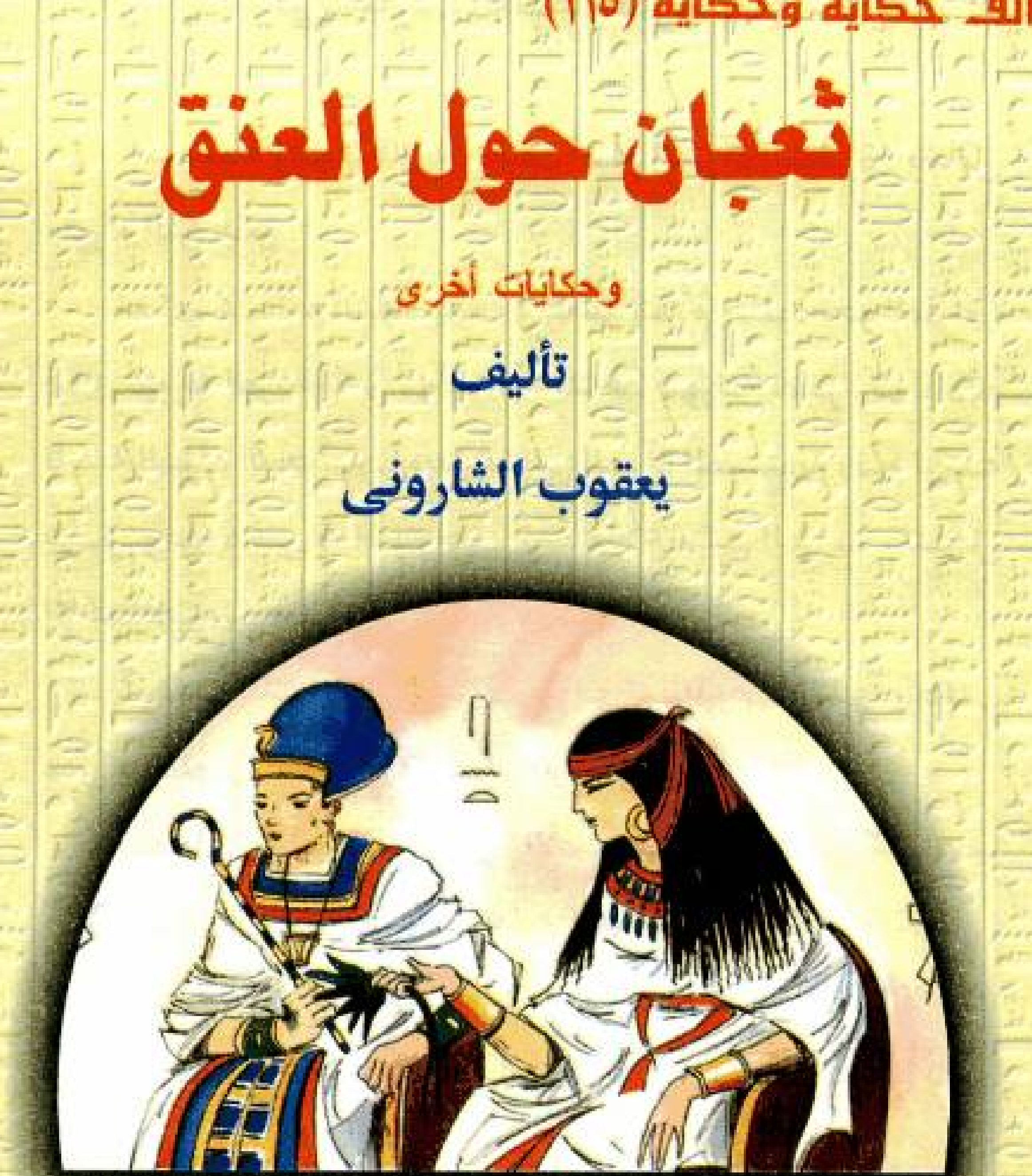
ألف حكاية وحكاية (١١٥)

ثعبان حول العنق

وحكايات أخرى

تأليف

يعقوب الشارونى



رسوم

تامر الشارونى

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

فى متحف العلوم وعمره سنة

عمرُهُ سنةٌ وشهورٌ قليلةٌ ، وقفَ أمامَ المرآةِ المقعَّرةِ ، وتأمَّلَ صورتَهُ المضحِكةَ .

ثم أمسكَتْ أمُّه الشابةُ بيدِهِ ، و جعَلَتْهُ يتقدَّمُ خطوةً نحوَ المرآةِ ، فرأى صورتَهُ الغريبةَ تكبرُ . وأبعدَتْهُ ، فشاهدَ صورتَهُ تصغرُ . ثم قادَتْهُ ناحيةَ المرآةِ المُحدَّبةِ .. وبعدَها إلى المرآةِ المستويةِ ، ثم تركَتْهُ يتنقَّلُ وحدهُ فى شغفٍ وحبِّ استطلاعٍ بين المرايا ، يتأمَّلُ الاختلافاتِ بين صورتِهِ فى سعادةٍ ودهشةٍ .

شاهدْتُ تلك الأمَّ فى متحفِ نيويورك للعلومِ ، الذى يتطلَّبُ ممن يدخلُهُ أن يتعاملُ بكلِّ حواسِّهِ مع كلِّ ما فيه .

وتبعْتُها مع رضيعِها إلى ركنِ " الأصوات " ، حيث أمْسَكَتْ عصا " الإكسلفون " ، لتمرَّ بها على قطعِ المعدنِ المختلفةِ الأطوالِ ، فيستمعَ الصغيرُ إلى نغماتِ السُّلَّمِ الموسيقِىِّ . ثم تُعطى العصا لابنِها ، فيضربُ بها قطعَ المعدنِ ، فيشعرُ بالسعادةِ نتيجةَ ما استطاعَ أن يُثيرَهُ من أصواتٍ .

ثم انتقلَتْ به إلى ركنِ الألوانِ ، ليرى كيف يمتزجُ الشعاعُ الأصفرُ مع الأزرقِ ، فيصبحانِ شعاعًا واحدًا أخضرَ اللونِ .



وهكذا لم تترك جهازًا من أجهزةِ التجاربِ العلميةِ ، إلا وتركَتْ رضيعَها يتعاملُ معه ، وهو الذى لم يتعلَّمِ المشىَ إلا منذُ ثلاثةِ أو أربعةِ أشهرٍ... والرضيعُ يستخدمُ يدَيْهِ وعينَيْهِ وأذنَيْهِ ، ليكتسبَ خبراتٍ جديدةً ، قد لا يفهمُ معناها الآنَ لكنها تتركُ على حواسِّهِ بصماتٍ لن يمحُوَها الزمنُ .

ثعبان حول العنق

حولَ عنقِهِ التفَّ ثعبانٌ أصفرُ ، تزخرفُهُ حلقاتٌ حمراءُ ..

وفوجِئَ الصغيرُ بهذا الذى ظنَّهُ حبلاً ، يتلوَّى فوقَ ذراعِ موظف الاستقبال .

وفتحَ الصغيرُ فمَهُ في دهشةٍ متسائلاً ..

لكنْ قبلَ أن يُلقِيَ سؤالَهُ ، كانَ مُوظَّفُ الاستقبالِ فى متحفِ نيويوركَ للأطفالِ ، قد أمسكَ برأسِ الثعبانِ ، وقرَّبَهُ من يدِ الصغيرِ .



وبحركةٍ لا شعوريةٍ ، تراجَعَ الصبيُّ وهو يهتفُ : " إنه ثعبانٌ !! "

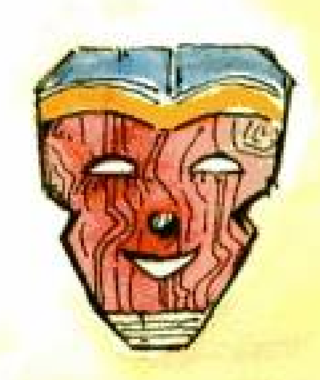
وضحكَ موظَّفُ الاستقبالِ ، وأمسكَ برفقٍ بيدِ الصغيرِ وهو يقولُ له : " إنه من نوعٍ لا يُؤذى .. غيرِ سامٍّ .. ألا تُريدُ أن تتحسَّسَ جلدَهُ ؟ "

وانتابَتْنِىَ الدهشةُ من جراءةِ الصغيرِ ، فقد سيطرَ عليه حبُّ الاستطلاعِ ، الذى أنساهُ كلَّ خوفِهِ ، ومدَّ يدَهُ يتحسَّسُ جلدَ الثعبانِ . بينما منعَنى خوفى ، الذى زَرَعَتْهُ التربيةُ فى أعماقى ، من أن أشاركَ الصغيرَ خبرتَهُ الجديدةَ !!

وفى جانبٍ آخرَ من المتحفِ ، عرضوا ثلاثةَ أقنعةٍ خشبيَّةٍ ، وطلبوا من الصغيرِ أن يُدخِلَ يدَهُ فى فراغٍ مظلمٍ مُجاور ، ليحدِّدَ من خلالِ اللمسِ ، أيَّ الأقنعةِ يُشبِهُ هذا القناعَ الذى يلمسُهُ فى الظلامِ .

وفى الطريقِ إلى البيتِ ، قالَ الصغيرُ : " أكثرُ شىءٍ أعجبَنى ، هو نعومةُ فراءِ الأرنبِ ، الذى تحسَّسْناه فى مسرحِ الحيواناتِ ، أثناءَ الحوارِ حولَ الفرقِ بين الأرنبِ المنزلىِّ والأرنبِ البرىِّ . "





أين اختارت أن تقضى وقت فراغها

كـانَتْ تجلسُ فـوقَ درجـاتِ السـلالمِ المؤديـةِ إلى " ركـنِ الأصواتِ " ، فى القاعةِ المُخصَّصةِ لأطفالِ ما قبلَ المدرسةِ ، بمتحـفِ نيويورك للعلومِ .

وظننْتُ فى البدايةِ أنها تراقبُ أطفالَها وهم يلعبونَ .

ودخلْتُ مع حفيدى وحفيدتـى ، وتركْتُهما يحـاولانِ تركيـبَ كراتٍ خشبيةٍ فى أطرافِ عِصىٍّ ، لإعطاءِ شكلِ الإلكتروناتِ وهـى تتحركُ داخل الذَّرَّةِ .

وواجـهَ الصغـيرانِ بعـضَ الصعوبـاتِ . لكـنْ قبـلَ أن أتقـدَّمَ لمساعدتِهما ، وجدْتُها تتركُ مكانَها ، وتجلسُ بجوارهما على الأرضيةِ المُغطَّاةِ " بسجاد الموكيت " ، وتشـجِّعُهما علـى إكمـالِ العمـلِ بأنفسِهما ، فقد اكتفَتْ بأن أوضحَتْ للصغيرَيْنِ كيف يتغلبانِ على ما صادفَـهما مـن عقبـاتٍ ، وتركَتْـهما يواصـلانِ " اللعـب و العمـل " وحدَهما .

ثم اندمجَتْ هى فى اللعبِ مع الصغيرَيْنِ ، فانتقلَتْ بهما من ركنٍ إلى آخرَ من أركانِ القاعةِ ، لاكتشافِ عالمِ الأوزانِ ، والقياسـاتِ ، و الوقتِ ، والمرايا ، والألوانِ ، يسألانِها فتُجيبُ عن أسئلتِهما بأسئلةٍ أخرى ، ويطلبانِ مساعدتَها فتطلبُ هى مساعدتَهما ، وكلما أنجزا شيئًا تُشجِّعُهما تشجيعًا .

واكتشفْتُ أنه ليس معها أيُّ أطفالٍ . وعندما سألْتُها ، قالَتْ :
" هذه هي طريقتي في قضاءِ وقتِ فراغي : أن أشاركَ الصغارَ
أنشطتَهم في متحفِ العلومِ .. فأنا واحدةٌ من بينِ عددٍ كبيرٍ ،
يتبرَّعونَ بساعاتٍ قليلةٍ كلَّ أسبوعٍ ، لتنميةِ الاتجاهاتِ العلميةِ عندَ
الأطفالِ داخلَ المتحفِ . "



آلة الزمن فى مصر القديمة

عندما حملَتْنا آلةُ الزمنِ داخلَ " سفينة فضاء اسمُها الأرضُ " الفضيةِ اللونِ ، وهى أكبرُ مبنى كروىٍّ فى العالمِ ، وذلك عند مدخلِ " مدينة ديزنى العلمية " فى فلوريدا بأمريكا ، كان أولُ توقُّفٍ طويلٍ لها ، أمامَ أحدِ ملوكِ مصرَ الفرعونيةِ ، وقد ظهرَ وسيمًا ذكيًّا قويًّا له هيبةٌ ، وبجوارِهِ الملكةُ ترتدى أجملَ الملابسِ والحلىِّ ذاتِ الذوقِ الرفيعِ ، وأمامَهما كبيرُ الكهنةِ على كتفَيْهِ جلدُ الفهدِ ، وأمامَهم يجلسُ " الكاتبُ المصرىُّ " ، يسجِّلُ على ورقِ البَرْدى توجيهاتِ رجالِ السلطةِ والدينِ .

وارتفعَ صوتُ قائدِ آلةِ الزمنِ،يقولُ فى تأكيدٍ : " بعدَ عصرِ القبائلِ المُتفرِّقةِ ، أقامَتْ مصرُ ، منذُ أكثرَ من خمسةِ آلافِ سنةٍ ، أولَ



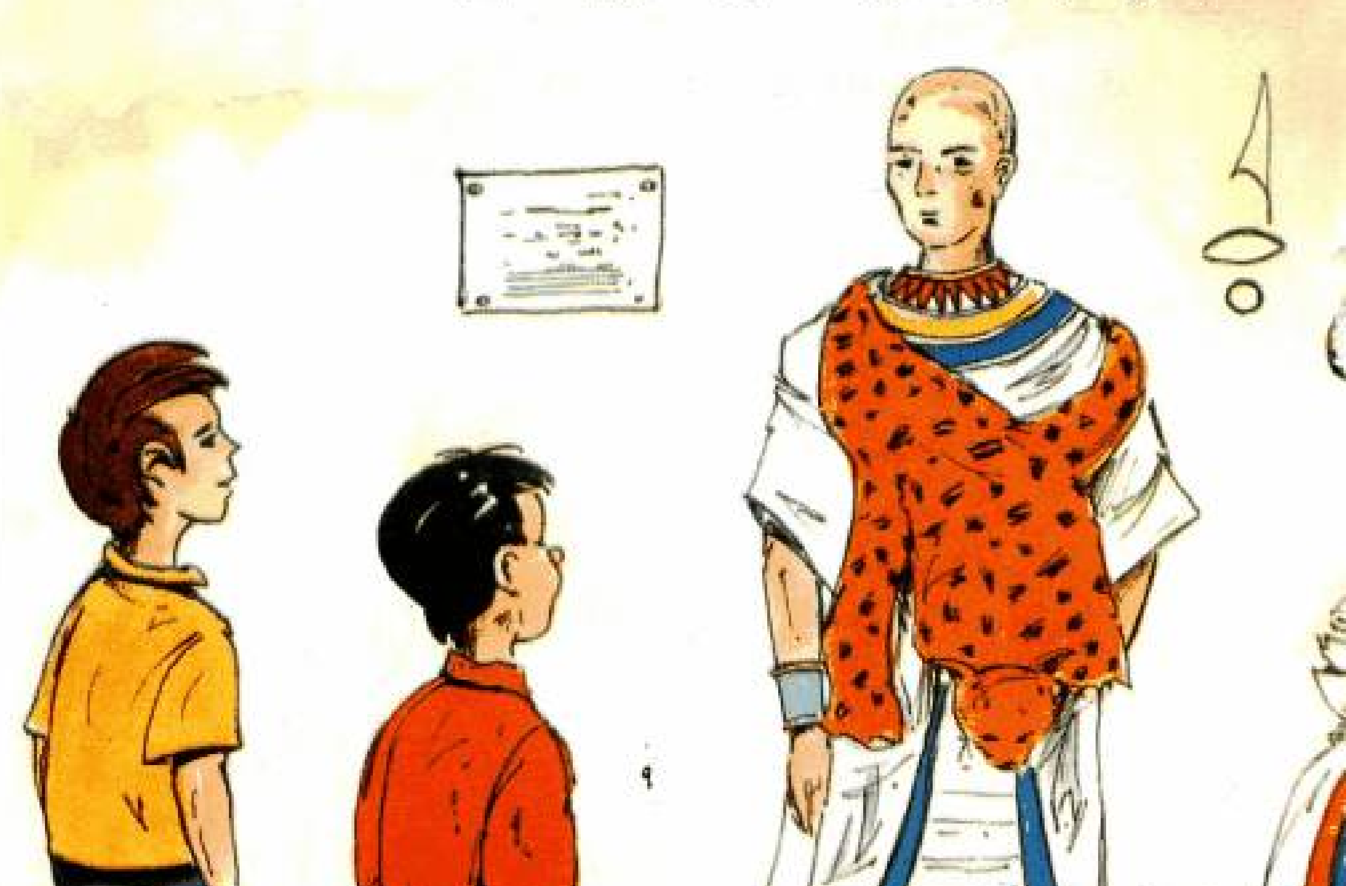
دولةٍ ذاتِ حكمٍ مُستقرٍ مُنظَّمٍ ، يحدِّدُ مسئوليةَ الحكومةِ عن شعبِها ، كما يؤكِّدُ سلطانَها عليه . "

" كذلك كانَتْ أولَ دولةٍ يخترعُ شعبُها صناعةَ الورقِ ، وبذلك تمَّ لأولِ مرةٍ فى التاريخِ تسجيلُ مُنجَزاتِ الحضارةِ ، خاصةً الفلكَ والطبَّ والزراعةَ والعمارةَ والموسيقى والرسمَ والنحتَ . "

ثم أخذْنا نتأمَّلُ المَشاهدَ المُجسَّمةَ المُتحركةَ ، تُعيدُ بعثَ مختلفِ جوانبِ العلمِ والفنِّ فى مصرَ القديمةِ .

وتذكَّرْتُ ما قالَتْهُ " نوبلكور " ، عالمةُ الآثارِ الفرنسيةُ ، ومديرةُ القسمِ المصريِّ بمتحفِ اللوفر :

" إن كلَّ الفنونِ والصناعاتِ فى عالمِ اليومِ ، لابد أن نجدَ جذورَها وأصولَها ، فى الحضارةِ المصريةِ القديمةِ. "



ليس كل من ركب حصانًا ، يصبح فارسًا

مع الفجرِ ، وقفَ رجلٌ على الشاطئِ مدةَ ساعتَيْنِ ، يُراقِبُ في دهشةٍ ذلك الصيادَ الذى استمرَّ يرفعُ بسرعةٍ ، كلَّ بضعِ دقائقَ ، قصبةَ الصيدِ التى معَهُ ، بعيدًا عن سطحِ الماءِ ، لينتزعَ من الصنارةِ سمكةً كبيرةً ، إلى أن امتلأت سلَّتُهُ .

ثم راقَبَه يجمعُ أدواتِه ، و يتراجعُ بضعَ أمتار على رمالِ الشاطئِ ، قبلَ أن يجلسَ ليتناولَ إفطارَهُ فى رضًا .

وفى هدوءٍ ، تقدَّمَ الرجلُ إلى نفسِ المكانِ ، الذى كان يقفُ فيه ذلك الصيَّادُ الذى ملأ سلتَهُ ، و استخدمَ قصبةَ صيدٍ تُشبهُ تمامًا قصبةَ ذلك الصيادِ ، ثم ألقَى صنارتَهُ فى نفسِ بقعةِ الماءِ .

و مضَتْ دقائقُ طويلةٌ ، ظلَّ خلالَها ينتزعُ صنارتَهُ المرةَ بعدَ الأخرى من الماءِ ، لكنْ لا شيءَ يخرجُ مع قطعةِ المعدنِ البراقةِ !!

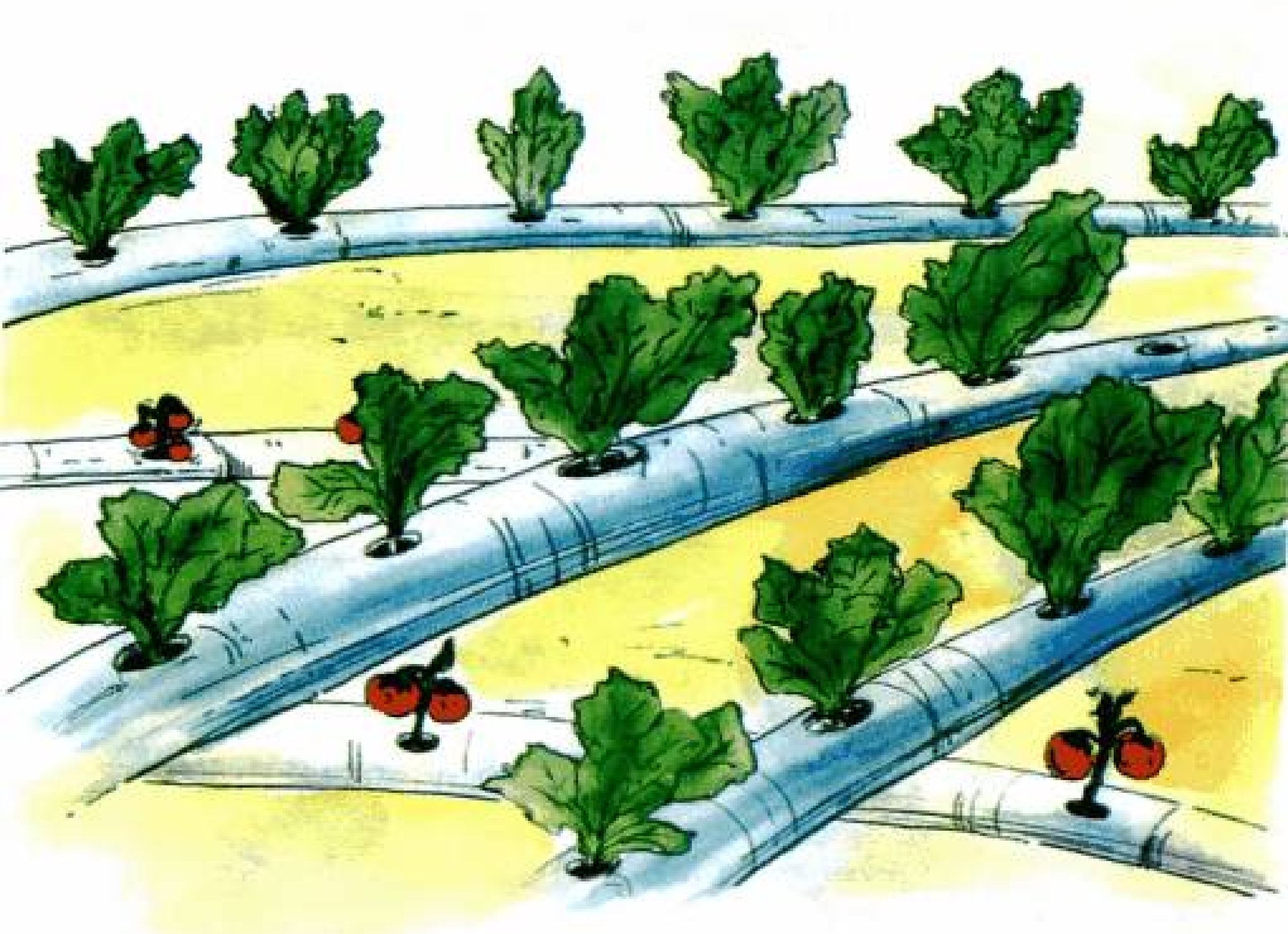
قالَ الرجلُ لنفسِهِ : " نفسُ المكانِ ، و نفسُ البحرِ ، و نفسُ أداةِ الصيدِ ، لكنْ لا صيدَ . أنا سيِّئُ الحظِّ !! "

أما الصيادُ الجالسُ إلى الخلفِ ، فقد ضحكَ بغيرِ صوتٍ ، وهو يراقبُ محاولاتِ الرجلِ الخائبةَ ، ثم همسَ لنفسِهِ :

" هل ظنَّ الساذجُ أن مُجرَّدَ احتلالِهِ المكانَ الذى كنْتُ أشغلُهُ ، سيجعلُهُ يُصيبُ من النجاحِ ما وصلْتُ إليه ؟! لقد نَسِيَ الموهبةَ ، والخبرةَ ، والتدريبَ الطويلَ ، ودقةَ الإحساسِ الداخليِّ . "



الزراعة بغير أرض



في مساحةٍ من الرمالِ كأنها جزءٌ من الصحراءِ ، امتدَّ أمامنا حقلُ قطنٍ قد تفتَّحَتْ لوزاتُهُ عن كمياتٍ كبيرةِ الحجمِ من القطنِ . وبجوارهِ حقلُ آخرُ من نباتاتِ عبادِ الشمسِ المُمتلِئةِ بالبذور ، ثم بعضُ أشجار الموز .

وبهذا تَوصَّل العلمُ إلى زراعةِ النباتاتِ التقليديةِ فى المناطقِ الرمليةِ التى تندرُ فيها المياهُ .

ثم حملَنا القاربُ الذى كانَ يتنقَّلُ بنا فى مدينةِ ديزنى العلميةِ، إلى منطقةٍ حافلةٍ بالأنابيبِ والقطعِ المعدنيةِ المُسَطَّحةِ ، وقد ترعرعَتْ من ثقوبٍ فيها أوراقُ " الخس " والفلفلُ الأخضرُ والطماطمُ.

إنها الزراعةُ بغيرِ أرضٍ ، وفيها تستمدُّ النباتاتُ الغذاءَ من الموادِّ الذائبةِ فى الماءِ ، الذى يدورُ فى الأنابيبِ .

ثم فوجِئْنا بنباتاتِ الخيارِ والباذنجانِ الأبيضِ والأسمرِ مُعلَّقةً عاليًا ، وجذورُ سيقانِها مُسترسِلةٌ فى الهواءِ ، ونقطُ الماءِ المحتوى على احتياجاتِ النباتِ تنزلُ قطرةً بعد قطرةٍ على تلك الجذورِ التى لا يُغطِّيها شىءٌ .. إنها الزراعةُ الهوائيةُ .

وبعدَها شاهَدْنا الزراعةَ الفضائيةَ ، التى تقومُ بها وكالةُ الفضاءِ الأمريكيةُ " ناسا " ، تمهيدًا لأن يحصلَ سكانُ مدنِ الفضاءِ ، فى المستقبل ، على ما يحتاجون إليه من غذاءٍ .

كلُّ هذا لم يكنْ خيالَ علماءٍ ، بل هى حقائقُ قد تحقَّقَتْ . وبَقِىَ أن يصلَ العلماءُ إلى خفضِ تكاليفِها ، وعندئذٍ يجدُ سكانُ الأرضِ كلُّهم ما يفيضُ عن حاجاتِهم من طعامٍ وغذاءٍ .

تصور أنك أحد العلماء

" تَصوَّرْ أنكَ أحدُ العلماءِ ، وقد اكتشفْتَ هذه النباتاتِ التى أمامَكَ .. حاولْ أن تعرفَ الفرقَ بين كلِّ نباتٍ وآخرَ . وعليك أن تقومَ باختيارِ اسمٍ لكلِّ نباتٍ ، على أن يتضمَّنَ الاسمُ أهمَّ صفاتِ النباتِ التى تُميِّزُهُ عن غيرِهِ . "

هذا سؤالٌ موجَّهٌ إلى الأطفالِ فى متحفِ الأطفالِ بنيويورك ، أمامَ رفٍّ عليهِ أربعةُ أوعيةٍ ، فى كلِّ وعاءٍ نباتٌ أخضرُ صغيرٌ . وفى متناولِ أيدى الأطفالِ ، أوراقٌ وأقلامٌ ، لكتابةِ ما يقترحونَهُ من أسماءٍ .

وفى مكانٍ آخرَ ، وقفَ الصغيرُ أمامَ أربعِ سلالٍ مصنوعةٍ من الخيزرانِ الرفيعِ ، كلُّ سَلةٍ تم " نسجُها " بطريقةٍ تختلفُ قليلاً عن طريقةِ صُنعِ السلالِ الأخرى ، وأمامها مكتوبٌ : " حدِّدِ السلتَيْنِ المتشابهتَيْنِ . "

وفى ركنٍ ثالثٍ ، مجموعةُ أصدافٍ ، وقطعةٌ نُحاسيةٌ على شكلِ نَجمةٍ ، وقطعةٌ غريبةُ الشكلِ من الحديدِ ، وأمامها سؤالٌ يقولُ للطفلِ : " هذه الأشياءُ يستخدمُها الناسُ فى غرضٍ متشابهٍ ، فما هو ؟ ! "

وعندما يُريدُ الطفلُ أن يتأكَّدَ من صحةِ إجابتِهِ ، يجذبُ خيطًا ، فيرتفعُ غطاءُ صندوقٍ ، يكتشفُ بداخلِهِ ورقةً نقديَّةً حديثةً ، فيعرفُ أن تلك الأشياءَ كانَتْ تُستخدَمُ كنقودٍ .



هـذه نمـاذجُ مـن أنشطةٍ متعـددةٍ ، تـهدفُ إلى تنميـةِ قـوةِ الملاحظةِ ، والقدرةِ على المقارنةِ ، وتحديدِ الفروقِ ، واسـتخلاصِ النتائجِ ، وهذه هى أساسياتُ " التفكيرِ العلميِّ . "



ذاتَ مرةٍ ، كتبَ قارئٌ ساخطٌ على أحدِ الكتابِ الصحفيين ، خطابًا ، وجَّهَهُ إلى ذلك الكاتبِ ، يقولُ فيه : " أنا لا أوافقُ إطلاقًا على ما كتبْتَهُ في مقالِكَ الأخيرِ . "

وفي نهايةِ الخطابِ ، أخذَ يصفُ الكاتبَ بصفاتٍ غيرِ لائقةٍ ، ويوجِّهُ إليه مختلفَ الاتهاماتِ .

لكن الكاتبَ ، الذي اعتادَ مثلَ هذا الأسلوبِ في رسائلِ بعضِ القراءِ ، أرسلَ إلى القارئِ خطابًا قالَ فيه : " يُسعِدُني أن تزورَني في مكتبي ، لنبحثَ معًا هذا الموضوعَ ، و أستمعَ إلى آرائكَ بتفصيلٍ أكثرَ . "

وعندما قامَ ذلك القارئُ بزيارتِهِ فعلاً ، استمعَ الكاتبُ إلى آرائهِ وتفهَّمَها ، وكذلك استمعَ القارئُ إلى آراءِ الكاتبِ وفهمَ وجهةَ نظرِهِ .

قال الكاتبُ : " لم يكنْ من المهمِّ أن يقتنعَ بوجهةِ نظري ، ولا أن أوافقَهُ على وجهةِ نظرِهِ . الشيءُ المُهِمُّ أن كلَّ واحدٍ منَّا استطاعَ أن يفهمَ الآخرَ ، وأن يُدركَ كلُّ واحدٍ منا أن الثاني قد كوَّنَ رأيَهُ نتيجةَ اقتناعِهِ به ، وليس تحت تأثيرِ أيةِ دوافعَ خارجيةٍ ، أو لمجردِ ترديدِ آراءِ آخرينَ !! "